

انثروبولوجية العلاج النفسي: نماذج من العلاج الإسلامي

أ. جريدة برحيل بن عصمان

جامعة تلمسان

الملخص:

إن العلاج النفسي الإسلامي هو علاج متكامل تتكامل فيه عدة أمور في أسلوبه العلاجي، فهو يعتمد على القرآن والسنة النبوية. لم يأتي بنظرية واضحة المعالم لكن في طياتها يحمل نظريات علم النفس البشرية والسنة النبوية فسرت ما ذكره القرآن. وهو أسلوب للعلاج الذي لا يحمل آثار جانبية فهو إعادة شاملة وبرمجة متكاملة للحياة والجسد والنفس والروح.

حاول الإنسان منذ فجر التاريخ علاج الأمراض بشتى الوسائل المتاحة له تبعا لمعتقداته الروحية والاجتماعية. والدلائل التاريخية تثبت أن عصور مبكرة كانت تعالج هذه الأمراض. والبداية العلمية للاضطرابات النفسية ودراستها كانت مع مجيء الإسلام ليساهم علمائه في تقديم وسائل علاجية من خلال الكشف عن أسرار نفسه وتوضيح التوجيهات العلاجية والوقاية من منها.

تبين الدلائل الأثرية إلى أن الإنسان في العصور المبكرة من التاريخ، لجأ إلى فتح ثقب في جمجمة المريض النفسي ليخرج منها الأرواح الشريرة. والبدايات العلمية لدراسة هذه الاضطرابات بدأت مع أبقراط في اليونان (460-380 ق م) وبعده جالينوس (201-131 م) الذي اعتبر الأمراض

النفسية مثل سائر الأمراض الجسمية تنتج عن زيادة الأخلاط أي السوائل في الجسم وليس الأرواح الشريرة.

وجاء الإسلام بنظامه المتكامل المنظم لجميع شؤون الحياة النفسبشرية وأسرارها وخباياها. واحتوى القرآن على وصف طبائع النفوس ووسائل علاجها.

والعلاج النفسي الإسلامي يقوم على بناء عقائدي للإنسان فهو عقيدة توحيد تامة قوامها الألوهية المطلقة وعلى هذا الأساس تنبثق سائر البناءات الأخرى. وينظر القرآن الكريم على أن الصحة النفسية تكمن في العقيدة أو ما يسمى بالتربية الدينية. ويتضمن النمو الشامل للصحة النفسية النمو الديني الأخلاقي، فاتباع التعاليم الدينية هو أساس الصحة النفسية والوقاية من المرض النفسي.

ومن أخطر أسباب الضلال هو البعد عن الدين وضعف الضمير من أخطر الأسباب النفسية للاضطراب. فيتأثر بذلك اطمئنان النفس ويحيلها الى نفس مضطربة بسبب صراع النفس المطمئنة مع النفس الأمارة بالسوء.(1)

وقد كانت إسهامات العلماء المسلمين كبيرة في العلاجات النفسية. وكانت البداية بتأسيس العديد من المستشفيات العقلية يقدم فيها علاج مستنير للمرضى. وقد اعتمدوا على فنية الاسترخاء. وكانت تلك المراكز محاطة بالنوافير الساحرة والحدائق المنسقة. واستعملوا كذلك الوجبات الخاصة والحمامات والعطور والأدوية. وأول مستشفى عقلي أسس بدمشق على يد الخليفة الوليد بن عبد الملك عام 808م ومه عمم إلى كافة العواصم الإسلامية في المشرق والمغرب وأشهرها مستشفى قلاون بالقاهرة وكان مثال مدهش للرعاية النفسية حيث كان يقدم مستوى عالي ومتابعة في فترة النقاهة حتى عودة المريض لحالته

الطبيعية. وقد اهتم المسلمون آنذاك بعلاج المرضى العقليين في المستشفيات العامة وإشراك المجتمع في رعايتهم. (2) كان يخصص لكل مريض مرافقان وعدد من الأطباء ويتم عزل المرضى الذين يعانون من الرق في غرف خاصة ومساعدتهم على النوم بسر القصص عليهم. وإضافة للمستشفيات بنيت التكايا (المجمعات العلاجية حول المساجد) وهي مؤسسات دينية صوفية تماثل إلى حد كبير مراكز نفسية اجتماعية التي أنشئت في أمريكا. وقد سبق علماء الحضارة الإسلامية المعالجين النفسيين أتباع مدرسة العلاج السلوكي المعرفي في تعديل الأفكار والمعتقدات السلبية أو الخاطئة على اعتبار أن أفكار الفرد هي التي تؤثر في سلوكه. واغتنم ابن حزم والغزالي علاج السلوك المذموم أو الخلق السيء بضده وهو أسلوب يتبعه المعالجون النفسانيون السلوكيون في علاج الخوف والقلق. واكتشف ابن سينا عدة نظريات لم تدرك إلا في العصر الحديث. فقد فسر حدوث النسيان بسبب تداخل المعلومات حيث يقول " وأكثر ما يكون حافظا هو الذي لا تكثر حركاته ولا تتفنن هممه، ومن كان كثير كثير الحركات لم يتذكر جيدا... ولذلك كان الصبيان في رطوبتهم يحفظون جيدا لأن نفوسهم غير مشغولة بما تشتغل به نفوس البالغين فلا تذهل عما هي مقبلة عليه بغيره." (3) وهذا ما ثبت علميا أن النسيان لا يحدث بسبب الزمن بل بازدياد النشاط وتداخل وتعارض بين المعلومات السابقة و الجديدة و في كتاب القانون تحدث ابن سينا عن صلب النفس والأعصاب وقدم وصف مفصل لمرضى الفصام. وعرفنا الرازي بمبدأ التدعيم في عملية التعلم وقبله يعقوب الكندي والغزالي الى مبدأ التدرج في تعلم العادات والمهارات وهي لا تختلف كثيرا على مبادئ وولبوسكينر في التعلم عن طريق الاشتراط الإجرائي. وقدم أبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدين، مباحث في دراسة السلوك والدوافع والانفعالات. فاهتم بعلام الدوافع ومجاهدة النفس عن طريق تكوين عادات صالحة. وتقوم فنيات العلاج النفسي الإسلامي على مبادئ دينية وروحية مقابل العلاج الدنيوي ويقصد به طرق العلاج التي تقوم على أساليب ومفاهيم وضعها البشر.

فالدين عامل في إعادة الطمأنينة وسلام النفس. وقد أكد كارل يونغ أن الدين عامل في إعادة غرس الإيمان والرجاء لدى المرضى. وأكد ستيكل أهمية تدعيم الذات الأخلاقية. إن العلاج النفسي الإسلامي أسلوب تربية ورشاد ويقوم على معرفة الإنسان لنفسه. "عن ودينه وعلى قيم ومبادئ روحية حيث يمزج بين الفقه والطب معا. (4)

ويعد ابن سينا من الأوائل الذي استعمل الإيحاء في العملية العلاجية إذ قال في كتابه "الشفاء" "تأمل حال المريض الذي توهم أنه صح، والصحيح الذي توهم أنه مرض فإن كثيرا ما يعرض ذلك أن يكون إذا تأكدت الصورة في نفسه وفي وهمه انفعال فيه عنصره ويقصد به الجسد، فكان الصحة أو المرض، ويكون ذلك أبلغ مما يفعله الطبيب. وفي هذا القول يكون ابن سينا قد سبق بما يزيد ألف عام، المفاهيم المعاصرة حول العلاقة التفاعلية بين النفس والجسم ليس في تسبب المرض فقط وإنما علاجها أيضا. وتؤكد الصورة واستحكام وجودها في النفس عين عملية التطبع أو التكيف كما جاء بها بافلوف. وقد أعطى ابن سينا هذه العملية أساسا وانفعالا ماديا على خلاف الأساس النظري كما هو الحال في مدرسة فرويد فيكون بذلك ابن سينا أقرب إلى النظرية المادية في الانفعالات النفسية فقد كان يعالج مرضاه بشكل مقنع. (5) وكان لابن سينا كذلك يد في العلاج بتداعي السماء واستعمل هذه الفنية في علاج حالة غشق وكانت الحالة تعاني من اعراض شبيهة بالاكتئاب. وعرف ابن سينا أن الحالة لن تشفى إلا إذا عرف من يحب وإزالة ما عنده من وجدانات وعواطف كامنة مرتبطة بها. فأمر ابن سينا إحضار سكان المدينة الذين يعرفون شوارع المدينة وسكانها وأمرهم أن يذكروا سكان الشوارع شارعاً شارعاً وأمسك على يد المريض ليحقق في مقدار سرعة نبضه عند ذكر أحد البيوت فطلب من الرجل إحضاره بأسماء سكان هذا البيت من الفتيات، فلما أتى اسم الفتاة أسرع نبضه وبهذه الطريقة عرف ابن

سينا سر المريض فبرئ من مرضه وعاد لحالته الطبيعية. وهذه الطريقة ليست بعيدة عما يستعمله التحليل النفسي في التداعي الحر.

وكان لابن القيم إسهام كبير في تطوير العلاجات النفسية مثل إزالة الألم بالضد مثل اتباع هوى النفس يؤدي بصاحبه إلى الضرر بها والضرر ناتج عن غفلة فيكون عقاب الذات لتخفيف مشاعر الإثم. والإنابة هي اللجوء إلى الله تعالى والإدراك الإيماني يخفف على المصاب حدة القلق. وإعطاء المرضى دلالة حيث لا يصيب المرء إلا ما كتب الله له. والتماس العوض يعني فقدان شيء يمكن تعويضه ويمكن إيجاد بديل عنه بمشاعر إيجابية. وفنية أخرى كالعلاج بالتخييل حيث لاحظ ابن القيم أن للوهم قوة فعلية في الإصابة بالمرض أو التوفي منه لأن الوهم يؤثر في النفس إلى درجة أنه يقع بالمرض فعليا. وتعتبر الإثارة الانفعالية أن القلب يحصل له من الابتهاج ولذة ما يدفع عنه الألم والهم فالمريض ورد ما يضره يقوي نفسه وهذه الإثارة اعتمدها بعض الأطباء المسلمين حيث يكون لها وقع صدمة مفاجئة التي تدفع الداء عن النفس. (6)

أما الرازي فقد عالج حالة منصور بن نصر بن نوح السماري الذي أصيب بمرض شديد يمكن من نفسه وطال عليه وصار مزمنًا وعجز عن علاجه الأطباء إلى أن حضر الرازي وحاول علاجه بطريقة أخرى فأخذه إلى حمام القصر وأعد له شراب وصب عليه ماء فاتر وتركه حتى تتحرك الأخلاط التي بمفاصله ثم خرج ولبس ملابسه وبيده سكين وقف أمامه وسبه ، فاشتد غضبه فنهض ووقف على قدميه وفر هاربا ثم لجأ للعلاج النفساني فحمله إلى الحمام وأعطاه جرعة وتركه حتى تنضج الأخلاط في المفاصل لكي يمد الحرارة بمدد جديد تقوى معه علة تحليل الأخرط. وهي مقارنة تشبهت شبه سيلبي لمرضى الروماتيزم. (7)

أما الفراي فقام بتشخيص وعلاج الحالات المرضية الجسمية الناجمة عن تفاعل الجسم مع النفس. فقد سأل عن فتى يعاني من طفح وبثور جسمية عامة ومنعه من الخروج من البيت إلا في الظلام وأعطاه من علاجاته وملاحظاته من كل نواحي حياته من طعام وشراب وعادات وعلاقات اجتماعية وغيرها من الأمور فلم يعثر على ما يتعلق بحياته. ثم قام بسبر أعماق حياته النفسية. ثم تحقق الفراي بأن الآفة الجلدية للفتى تعبير عن حالته النفسية المضطربة. وهذا أسلوب تحليلي نفسي معاصر سبق إليه الفراي. (8)

إن العلاج النفسي الإسلامي علاج إيماني أي يعتمد على ترسيخ دعائم الإيمان في نفس الفرد وللإيمان قيمة علاجية عظيمة وقيمة وقائية تجعل المؤمن يشعر بالأمن والأمان والاطمئنان والاستقرار والهدوء والسكينة والزهد في متاع الدنيا وشهواتها والرضا بقضاء الله وقدره.

وهو كذلك علاج خلقي بمعنى أنه خلقي في منهجه فيحترم كرامة الإنسان ويصونها ويعتمد في الوقاية والعلاج والشفاء على بث المبادئ الخلقية والفضائل الحميدة في نفس الفرد ووضح أن هناك ارتباط كبير بين الانحراف الخلقي والانحراف المرضي فكلاهما يقود إلى الآخر.

إنه كذلك علاج امتثالي أي أنه يدعو الفرد إلى الامتثال للقيم والمبادئ والمثل العليا والأعراف السائدة في المجتمع ومن ثم يحقق الفرد تكيفا مع المجتمع في كنفه فيرضى عن المجتمع ويرضى المجتمع عنه. وهو كذلك علاج تعضيدي وبلغة العصر فهو العون والمساعدة والتأييد والتشجيع للمريض حتى يرضى عن نفسه ويثق بها ويتحرر من مشاعر النقص والدونية.

وهو كذلك علاج إقناعي يقوم علة إقناع المريض عقليا بالحلول المنطقية وهو بذلك يستخدم تأثير العقل الى جانب التأثير في إدارة المريض في شعوره.. وهو علاج سلوكي يهدف الى تغيير وتعديل السلوك لأن اللعبرة بالعمل الحقيقي في إطار الإسلام والدين المعاملة. إذا تعدل سلوك الفرد وأتى الفرائض وتحاشى المعاصي فإنه ينجو بعون الله تعالى من الأمراض.

وفي الأخير هو علاج شمولي يتناول شخصية المسلم بكافة جوانبها الجسمية والعقلية والروحية والخلقية والاجتماعية و الاقتصادية والعلمية بل هو يتناول الفرد منذ ولادته بل حتى قبل أن يولد الى نهاية الحياة.

المراجع:

- 1- حامد عبد السلام زهران (2005). الصحة النفسية و العلاج النفسي. دارالكتب-ط 4. القاهرة. ص 265.
- 2- طارق بن علي الحبيب.(2012). العلاج النفسي والعلاج بالقرآن - رؤية نفسية شرعية طبية- دار الحضارة للنشر والتوزيع. ط1. الرياض. ص 21.
- 3- المرجع نفسه ص 29.
- 4- محمد عز الدين توفيق. (2002). التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية. دار السلام للنشر والتوزيع. ط 2. القاهرة. ص 354.
- 5- علي كمال. (1994). العلاج النفسي قديما وحديثا. دار فاس للنشر والتوزيع. عمان . ص 20.
- 6- سميج عاطف الزين. (1991). علم النفس، النفس البشرية. دار الكتاب المصري. ط1. ص 267.
- 7- العلاج النفسي قديما وحديثا، علي كمال، مرجع سابق ص 64.
- 8- نفس المرجع السابق. ص. 68.